وسار بنا الترجمان الى ان بلغنا كنيسة القيامة . ووقف بنا وقفة طويلة وهو يشرح لنا تاريخ الكنيسة ، وبناءها على مر العصور . وشرح بالتفصيل وصول الخليفة عمر بن الخطاب الى المكان ، وان البطريق صفرنيوس سلمه مفتاح الكنيسة ودعاه الى الصلاة فيها ، وان الخليفة رفض ذلك ، وصلى في الساحة المقابلة حيث المسجد القائم . وكيف اعطى الخليفة الى نصارى بيت المقدس عهد الامان على ارواحهم وكنائسهم الى اخر القصة .

وكان معظم ما ذكره لنا معروفا عندنا ، لكثرة ما قرأناه وسمعناه . ولكن الذي لم نكن نعرفه قد تعلمناه عند باب الكنيسة . فقد اصابتنا الدهشة ، ونحن نقترب من مدخل الكنيسة لنرى على يسارنا « مصطبة » عالية يجلس عليها شيخان جليلان مسلمان ، يتبادلان التحية مع الداخلين الى الكنيسة ، سواء منهم القساوسة ام الناس العاديين .

وقد عجبنا لهذين العالمين المسلمين يجلسان عند باب الكنيسة ، وتجلس معهما على رأسيهما عمامتان كبيرتان ، وعلى كتفيهما جبتان فضفاضتان ، كأنهما قدما من حلقة الدرس في المسجد الاقصى قبل هنيهة .

وسلم الترجمان على الشيخين الجليلين سلام العارف . ثم بادرنا بالقول : الاستاذان احدهما من آل نسيبة والثاني من آل جودة ، وهما من اقدم عائلات القدس الاسلامية . ان بيدهما مفاتيح كنيسة القيامة ، يتوليان فتح ابوابها واغلاقها . وهذا التقليد متوارث في هاتين العائلتين منذ الفتح الاسلامي الى يومنا هذا .

وتكلم احد الشيخين وقال : ان جدنا نحن آل نسيبة كان مع سيدنا عمر حينما فتح بيت المقدس ، ومنذ ذلك العهد ومفاتيح كنيسة القيامة بأيدينا ، نعطيها لال جودة ويفتحون ابواب الكنيسة ثم يعيدوها الينا . وقد توارثنا هذا التقليد عن اجدادنا . ولم ينقطع هذا التقليد الا زمن الحرب الصليبية .

قلت : وبعد ذلك ؟

قال : بعد أن استرد صلاح الدين الايوبي بيت المقدس ، عاد الينا هذا التقليد . واستمر في عهد الدولة العثمانية ، ومن بعده في عهد الاحتلال البريطاني .

قلت : وهل الطوائف المسيحية راضية بهذا التقليد ؟

قال : الطوائف المسيحية ليست راضية فحسب ، ولكنها لا ترضى عنا بديلا . ولا توافق أية طائفة ان تكون المفاتيح بيد طائفة اخرى .

وكان ان ازدحم باب الكنيسة بالداخلين ، وكان يوما من الاعياد الدينية ، على ما يبدو . فمشى الترجمان امامنا ونحن وراءه كأننا على موعد مع الجموع الوافدة الى الصلاة .

وكانت ساعة رائعة حقا . غريدة حقا . فقد ساقتني اسفاري في مراحل عمري المتقدمة الى كثير من الكنائس في العالم . ولكن كنيسة القيامة كانت شيئا اخر .

وكان اكثر ما يسترعي الاهتمام ان كنيسة القيامة هي مجموعة من الكنائس . لكل طائفة مسيحية كنيستها وقساوسها واعلامها ومحاربها وتماثيلها وقبورها ومباخرها ومقاعدها واخيرا مكانسها . واقول « مكانسها » فان وراء الامر ، كما شرح لنا الترجمان ، تقاليد طائفية أصبحت لها قوة القانون ولا يمكن تجاوزها . ذلك أن كل طائفة مستقلة بالعناية بكنيستها او جناحها ، وان احدا لا يتجاوز على أحد في شبر واحد ، حتى في التنظيف والكناسة . وكم وكم حدثت مشاحنات ومشاجرات بكل الادوات الموجودة في الكنائس ، اذا تجاوز راهب خطأ او عمدا على نصيب راهب اخر ، اثناء النظافة والكناسة .